المحاضـــرة الثالثة:الفنـــــــــون الشعرية التقليديـــة

مقدمة:

كثر عدد الشعراء في هذا العصر كثرة تلفت النظر، ولكن هذه الكثرة العددية لم تكن تواكبها إجادة شعرية متميزة. فكان الشعراء المجيدون قلة، ولم يتوقف موكب الشعر أو ينقطع في الأعصر الأدبية كافة على تباين الظروف، واختلاف الحكام، بل ظل يحتفظ بمكانته التقليدية من الرعاية والعناية، وظل الناس يكرمون الشاعر ويقدرونه، مع أن هذه الظاهرة تبدو جلية في عصر الدول والإمارات، وتغيب في العصر العثماني، ولاسيما في بلاطات الحاكمين. ويمكن تصنيف الفنون الشعرية في هذا العصر إلى نوعين: نوع تقليدي لم تختلف فيه موضوعات الشعر عن تلك التي نجدها في العصور السابقة، من مدح وهجاء وفخر وغزل ورثاء ووصف وما إلى ذلك. ونوع جديد واكب ما استجد في حياة الناس من مظاهر الترف والبذخ والمجون والعناية بزخرف الحياة من [شعر الفكاهة والأحاجي].

المـــدح:

امتزج غرض المدح في هذا العصر بشعر النضال وتمجيد البطولة والجهاد في سبيل الله، ووصف المعارك التي خاضها القادة المسلمون ضد الغزاة الصليبون، فلا نكاد نجد سلطانا أو أميرا أو قائدا من أولئك الذين تصدوا للتتار والصليبيين إلا حاز إعجاب الشعراء. ومن أهم مميزات المدح في هذه الحقبة، هو أخذ شعرائها لمعاني القدماء فصاغوها صياغة جديدة، وسبكوها في القوالب التقليدية المتداولة. فإذا وصف الشاعر القديم ممدوحه بأنه بحر أو غيث أو أسد أو شمس أو قمر أو متوج بتيجان الملوك أو تقي أو سليل أكارم وأماجد أو حام للدين وأهله، أو مذل للشرك وقومه.. جاء الشاعر اللاحق فاتبع سنن الشاعر السابق من دون أن يحيد عما جاء به، وكأنه قد وضع نصب عينيه مقولة: «ما ترك الأول للآخر شيئاً».

ومثل السابق قصيدة أبي تمام في فتح عمورية ومديح المعتصم، أو قصيدة أبي الطيب المتنبي في وصف معركة الحدث ومديح سيف الدولة، ومثل اللاحق قصيدة أبي منير الطرابلسي (ت548هـ) في مدح نور الدين زنكي وانتصاره على الصليبيين، وقصيدة ابن الساعاتي علي بن مُحَمَّد (ت604هـ) في فتح صلاح الدين بيت المقدس[1]. وقد كان التفاوت كبيراً في جودة قصائد السابقين وقصائد اللاحقين وابتكار المعاني ومتانة الأسلوب.

نجد، إضافة إلى نوع المدح السابق، مدحا آخر حاز فيه رجال الدين والعلماء والأدباء إعجاب الشعراء فامتدحوهم، وعددوا مناقبهم وصفاتهم، وإن كان هذا الإعجاب لا يخلو أحيانا من رجاء أو طمع في عطاء، فإنه يشتمل غالبا على الأحاسيس الصادقة، ومن ذلك قول ابن مليك الحموي [840هـ - 917] يمدح قاضي القضاة شهاب الدين أبو العباس:

ولله ســـر في عـــــلاك فما عسى[2] يقـــول حسود أو عدو يجاهر
وأضحت دمشق الشام بالحسن جنة عليها جمال منك باه وبـــــاهر
وجامعها بالحسن أصبـــــح مفردا وقد أعربت بالوصف عنه الضمائر
ومنبره لما به قمت خـــــــاطبا تمنت بأن تسعـــــــى إليه المنابر

الرثاء :

نظراً للأحداث الجسام التي مرت على الأمة الإسلامية وما حصل من معارك نتج عنها الموت والقتل والتخريب، فقد واصل الشعراء في هذا الغرض، وبرز في هذا الغرض ثلاثة أنواع :

أ.المراثي الخاصة: قيلت في أناس أعزاء على قلب الشاعر كما في رثاء صَفِيّ الدينِ الحِلّي 750 - 675 هـ لعبدٍ مملوك له، ربّاه من صغره حتى صار كاتباً فطنا:

هجرتْ بعدكَ القلوبُ الجسوما حينَ أمستْ منكَ الربوعُ رسومَا
يا هـــلالاً أودى بهِ الخسفُ لما صــارَ عندَ الكمالِ بدراً وسيمَا
ما ظَنَنّا المنـــونَ تَرقَى إلى البَد رِ، وأنّ الحِمامَ يَغشَى النّجــومَا
هَدّ قَلبي مَن كانَ يــؤنِسُ قَلبي إذْ نَبَـــــذناهُ بالعَراءِ سَقِيمَا
ونأى يوسفي، فقد ذهبتْ عينا يَ من حزنِهِ، وكنـــتُ كظيمَا

ب.المراثي العامة: وهي كثيرة تقوم على الإشادة بصفات المرثي وكريم مزاياه من خلال المبالغة والصنعة، ومن ذلك قول ابن نباته [686هـ- 768هـ] في رثاء الملك المؤيد:

ما للندى لا يلبي صــوت داعيه أظـــن أن ابن شاد قــام ناعيه
ما للرجاء قد اشتـــدت مذاهبه ما للزمان قد اسودّت نـــواحيه
مالي أرى الملك قد فضَّت مواقفه مالي أرى الوفد قد فاضت مآقيه
نعى المؤيـــد نــاعيه فيا أسفي للغيث كيف غدت عنا غواديه
واحسرتاه لنـــظمي في مدائحه كيف استحال لنظمي في مراثيه
أروي بدمعي ثرى ملك له شيم قد كان يذكرها الصادي فترويه

ت. رثاء الممالك والمدن: حفل ديوان رثاء المدن في المشرق والمغرب بطائفة من القصائد تتحدث عن تلك المدن التي خربت إبان الحروب الصليبية، ومن أمثلته نكبة بغداد على يد هولاكو التي استثارت عاطفة عدد من الشعراء من أمثال شمس الدين الكوفي [ت. 676هـ]، الذي يقول:

إن لم تقـــرح أدمعي أجـفاني من بعد بعدكم فما أجفاني
إنسان عيني مذ تناءت داركـم ما راقـــــه نظر إلى إنسان
يا ليتني قد مت قبل فراقكـــم ولساعـــة التوديع لا أحياني
ما لي وللأيام شتت صرفـــها حالي وخـــــلاني بلا خلان
ما للمنازل أصبحت لا أهلها أهلي ولا جيـــرانها جيراني
وحياتكم ما حلها من بعدكم غير البلى والهـــدم والنيران

الغزل :

وهو غرض أكثر منه الشعراء في العصر المملوكي فأفردوه حيناً بقصائد مستقلة، وجعلوه أحياناً في مطالع مدائحهم، وقد كان هذا الغزل يطل برأسه من خلال العتاب، والرضى، والافتتان، والشكوى ويحمل في طياته التقليد حيناً والتجديد أحياناً أخرى، وقد انطلق شعراء هذا العصر بغزلهم من مفاهيم جمالية تقليدية غالباً وتحدث الغزل عندهم عن:

أ. وصف محاسن الحبيب: حيث شبّهوا وجهه بالبدر والشمس وشعره بالليل، ورحيق الثغر بالخمر، ونظرات العيون بالسهام والحواجب بالقسي، وقدّه بالرماح وصدغه بالعقربة. ومن ذلك ما قاله شهاب الدين التَّلَّعْفَري 675 – 593) هـ :

لو تنعق الشمس قالت وهي صادقة مـا فِيَّ فيها، وما فِيَّ الذي فيها
هبني أماثلها نوراً وفـــــــرط سَنا[3] من أين أملك معنى من معانيها

ب. وصف أحوال المحبين: حيث جعلوا المحبّ يتجرع الحزن والشوق والصبابة، وجعلوا المحبوبة قاسية ظالمة لا تلين، وجعلوا وصلها أبعد من الثريا.

ت. الحديث عن الوشاة والرقباء: ومتاعب وعثرات الحب، حيث اتهموا العذال بالبلادة، وجعلوا أعين الرقباء مخيفة، ونظراتها حاقدة وحاسدة.

ث. تغير معايير الجمال من العيون النجلاء الحوراء إلى العيون الضيقة والعيون الزرقاء.

ج. الإعراض عن ذكر الأسماء كزينب ورباب وسعدى وهند وأسماء إلى أسماء جديدة هي واقع الحال.

ح. الحديث عن زيارة طيف المحبوب وخياله في المنام واليقظة: وفي ذلك يقول الحلّي :يقول ابن نباتة :

قام يرنو بمقلـــــــةٍ كحلاءِ علمتني الجنـــــون بالسوداء
رشأٌ دبَّ في سوالفه النَّمِـــــ ـلُ[4] فهامت خـــواطر الشعراء
روض حسن غنى لنا فوقهُ الحلـ ـيُ فأهلاً بالروضةِ الغـــــناء
جائـــر الحكم قلبه ليَ صخرٌ وبكائي له بكـــى الخنساء
عذلوني على هـــــواهُ فأغروا فهواه نصبٌ على الإغـــراء
من معيني على رشأ صرت من ما ء دمـــوعي عليه مثل الرشاء
وحبيبٍ إلي يفعلُ بالقلـــــ ـبِ فعال الأعداء بالأعـــداء
ضيق العينِ إن رنا[5] واستمَحَنا وعناء تسمُّـــــــح البخلاء
ليتَ أعطافـــه ولو في منامٍ وعـــــدت باستراقةٍ للقاء

الهجاء:

إضافة إلى غرض الهجاء بشكله التقليدي المعروف، تحولت الكثير من القصائد الشعرية في هذا الغرض إلى ما يشبه النقد الاجتماعي، وهذا الغرض من محاسن شعراء هذا العصر، وهو دليل جرأتهم، ودليل على ما كانوا يعانون من آلام، وكانت وجهة الناقدين المصلحة العامة، ولم يخشوا في سبيلها أن يتناولوا حاكما أو عالما أو قاضيا أو فردا أو طائفة. ومزجوا نقدهم بشيئين هما: تسجيل الوقائع والهجاء. ومنه قول شهاب الدين الأعرج [ت. 785هـ]:

وكيف يروم الرزق في مصر عاقل ومن دونه الأتراك بالسيف والترس

وقد جمعنه القبط من كل جهة لأنفسهم بالربع والثمن والخمس
فللترك والسلطان ثلث خراجها وللقبط نصف والخلائق في السدس

ومن آلم ألوان النقد وألذعها، قصيدة نظمها الشاعر جمال الدين السلموني [ولد 854هـ]، وقد هجا بها قاضي قضاة الحنفية حينذاك عبد البر بن الشحنة، وقد قاسى الشاعر بسببها محنا عدة، ويقول فيها:

فشا الزور في مصر وفي جنباتها ولم لا وعبد البر قاضي قضاتها
أَيُنكَر في الأحكام زور وباطل وأحكامه فيها بمختلفاتها
إذا جاءه الدينار من وجه رشوة يرى أنه حِلٌّ على شبهاتها
فإسلام عبد البر ليس يرى سوى بعمته والكفر في سنماتها
ولو أمكنته كعبة الله باعها وأبطل منها حجها وعُمُراتها

---

[1]- يقول أبو تمام في فتح عمورية ومدح المعتصم:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ في حدهِ الحدُّ بينَ الجدِّ واللَّعبِ
بيضُ الصَّفائحِ لاَ سودُ الصَّحائفِ في مُتُونِهِنَّ جلاءُ الشَّك والريَب
فَتْحُ الفُتوحِ تَعَالَى أَنْ يُحيطَ بِهِ نَظْمٌ مِن الشعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الخُطَبِ
فتحٌ تفتَّحُ أبوابُ السَّماءِ لهُ وتبرزُ الأرضُ في أثوابها القُشُبِ
يَا يَوْمَ وَقْعَةِ عَمُّوريَّةَ انْصَرَفَتْ منكَ المنى حُفَّلاً معسولةَ الحلبِ

يقول أبو الطيب المتنبي يمدح سيف الدولة:

عَلى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تأتي العَزائِمُ وَتأتي علَى قَدْرِ الكِرامِ المكارمُ
وَتَعْظُمُ في عَينِ الصّغيرِ صغارُها وَتَصْغُرُ في عَين العَظيمِ العَظائِمُ
يُكَلّفُ سيفُ الدّوْلَةِ الجيشَ هَمّهُ وَقد عَجِزَتْ عنهُ الجيوشُ الخضارمُ
وَيَطلُبُ عندَ النّاسِ ما عندَ نفسِه وَذلكَ ما لا تَدّعيهِ الضّرَاغِمُ

يقول أبو منير الطرابلسي مادحا السلطان نور الدين زنكي:

يا محيي العدل ويا مُنْشِرهُ من بين أطباق البلى وقد همد
وركن الإسلام الذي وطده طال وأرسى العز فيه ووطد
محوت ما أثبته الجور مضى عليه إخلاد الليالي فخلد
عن كل مكاس يظل قاعداً لما يسوء المسلمين بالرصد
كانت لأرجاس اليهود دولة أزالها منك الهصور ذو اللبد
الملك العادل لفظ طابق الـ معنى وفي الوصف معاد مسترد
لازال للإسلام منك عدة تقيم منه كل زيغ وأود
مثلك لا يسخو به زمانه ومثل ما أوتيت لم يؤت أحد

وقال ابنُ الساعاتي في إحدَى قَصائدِهِ القُدسيَّةِ، يُمَجِّدُ جُهودَ صلاحِ الدينِ، ويُشيدُ بِفضْلِهِ، لأنَّهُ أنقَذَ بيتَ المقدِسِ، وحرَّرها بِالسَّيفِ مِن أيدي الغاصبين الفِرنْجةِ

هُوَ مُنقِذُ البيتَ المقَدَّسَ بَعدما طالتْ، فَما وجَدَ الشِّفاءَ شَكاتُهُ
بيتٌ تَأسَّسَ بِالسُّكونِ، وإنَّما عندَ الزّحافِ، تَحَرَّكَتْ سَكَناتُهُ

أَمُشَتِّتَ الأَعداءِ، وهيَ جَحافِلٌ عن شَمْلِ دينٍ جُمِّـــعَتْ أشْتاتُهُ
أَوتِيتَ عَزْمًا في الحُروبِ مُسَدَّدًا لا زَيْفُهُ يُخْشَى، ولا هَفَـــواتُهُ
أحسَنْتَ بالبيتِ العَتيقِ، ويَثْرِبٍ ولَكَ الفَعالُ كَثيـــرَةٌ حَسَناتُهُ
هذي سُيُوفُكَ مُحْرِماتٌ دونَـــهُ لِبُكائِهِنَّ تَنَسَّمَتْ حُجُـــراتُهُ

[2]- يقول أبو الطيب المتنبي مادحا:

وَلله سِرٌّ في عُـــــــــلاكَ وَإنّمَا كَلامُ العِـــدَى ضَرْبٌ منَ الهَذَيَانِ
أتَلْتَمِسُ الأعداءُ بَعـــــــدَ الذي رَأتْ قِيَامَ دَليـــلٍ أوْ وُضُوحَ بَيَانِ
رَأتْ كلَّ مَنْ يَنْوِي لكَ الغدرَ يُبتلى بغَـــــــدْرِ حَيَاةٍ أوْ بغَدْرِ زَمَانِ

[3]- السنا: ضوء البرق+الشرف والرفعة

[4]- سوالفه النَّمِـلُ: الجارِيَةُ إذا كانَتْ فَوْقَ الكاعِبِ+ النشاط

[5]- رنا: نظر إلينا.